دفاعاً عن مناصرة الفلسطينيين

لا بدّ لي أن أوضح سياق هذا المقال: في اتصالاتي لسنوات ببرنار نويل، كانت القضية الفلسطينية حاضرة على الدوام في خطابه. وكان طيلة هذه السنة الماضية، على إثر الاحتلال الإسرائيلي الأخير لنابلس وجنين ورام اللّه، ثم اتساع رقعة الاحتلال، يتابع، بين سفره إلى إسبانيا وإقامته في الجنوب الفرنسي، الأخبار الواردة من فلسطين وما يكتب عنها في الصحافة، تلك حياته اليومية، قلقه، ويأسه الكبير. ومن بين ما نشرته الصحافة الدولية من تقارير وصور عن الأحداث، نذكر المقالات المنشورة في صحيفة «لوموند» الباريسية. ثم كانت زيارة الكتّاب أعضاء البرلمان العالمي للكتّاب لفلسطين (من ٢٤ إلى ٢٩ مارس (آذار) ٢٠٠٢) ، الذين نشروا هم أيضاً بعد عودتهم شهادات في الصحيفة ذاتها. وكان رد فعل المناوئين للقضية الفلسطينية جاهزاً للرد على ما ينشر، تشهيراً بالعداء للسامية. هنا جاء رد برنار نويل على رد كلود لانزمان، المنشور بدوره في «لوموند» الباريسية. لكن رد برنار نويل لم يجد في فرنسا سبيلاً إلى النشر، لا في «لوموند» ولا في سواها. قبل شهرين، أخبرني بمقاله وبالصعوبات التي حالت دون نشره، وعندما التقينا، قبل أسبوعين في كاركاسون، بالجنوب الفرنسي، كان أول ما فاتحني به أمام رفيقته إيليان: «أنا مريض بفلسطين». كان جوابي الصمت. ثم أضاف: «ما العمل؟»، «نكتب»، أجبت، هنا كان حديثنا عن هذا المقال وترجمته إلى العربية، إلى جانب المقال كتب برنار نويل أغنيتين احترم فيهما شروط الأغنية، من وزن وقافية، فلربما يعثران على المغني الذي يتحمّس لهما، وقد سمحت لنفسي بإعطاء عنوان لهذا المقال.

م. بنيّس

كان الماريشال كورينغ يقول: «عندما أسمع الثقافة، أشهر مسدسي». أما بالنسبة لشارون فهو يفرح بخلع سرواله والاستراحة، لا لهذه الكلمة، بل لكل ما تصفه هذه الكلمة، الدليل على ذلك يقدمه هذا المقال المنشور في ٧ مايو/أيار في صحيفة «لوموند» تحت عنوان «في رام اللّه، في وزارة الثقافة المخرّبة من طرف الجيش الإسرائيلي».

وأهم المعلومات تتمثل في هذه البداية: «بمجرد ما تجتاز الأبواب المحطمة بالمتفجرات، تصيب الرائحة

الكريهة الحلق بالاختناق. من مسافات بعيدة، لا تترك الموكيت الملطخة بطبقات داكنة شكاً في مصدر الرائحة، فوزارة الثقافة، التي انسحب منها الجيش الإسرائيلي ليلة ٢/١ مايو/أيار، لم تعد سوى حقل قاذورات.

لقد خلف الجنود ورا هم مكاتب مقبورة، حواسيب مدمرة وجبالاً من الوثائق مبعثرة فوق الأرض، مختلطة بأعقاب السجائر وفضلات وجبات الأكل والغائط، في كل مكان تصعد الرائحة ذاتها لتخنق الحلق، لم ينج أي قسم من أقسام الوزارة من التخريب، أكوام الكتب والصور والرسوم تحمل على شاكلة واحدة أثر المحتلين.

قنينات البلاستيك المملوءة بالبول تتصدّر المكاتب أو تتمدّد عند أسفل الجدران التي ألقيت عليها. يوجد، على الدوام، كلام منحط لتعبيرنا عن احتقار الآخر ونحن نقذفه أو نعنف به هتكاً لعرضه. يتعلق الأمر بالتلطيخ الذي هدفه حجب الإنساني تحت طبقة من الغائط، فهو لا يستطيع في نفيه للآخر كمثيل، إلا أن يتطور باتجاه إسرافه بالتعذيب، والقتل والمذابح.

أليس من المذهل أن تنشر الصحيفة العمومية ذاتها يوم ١٠ مايو/أيار، ثلاثة أيام على نشر المقال الأول، مقالاً عن هدم الإسرائيليين لجزء من المدينة القديمة لنابلس بدعوى أنها مدرجة ضمن «كنز الإنسانية»، ومقالاً ثانياً كوفئ بمكان يتصدر الصفحة الأولى ثم بصفحة بكاملها، الرابعة عشرة، له عنوان «هذيانات العار المناهض لإسرائيل». توقيع شخص ما اسمه كلود لانزمان.

«شخص ما» لأنه كان يبدو مستحيلاً لقدح موسوم بتصرف نذل، باحتقار فظيع وبافترا ءات، أن يكون من عمل مؤلف كتاب المحرقة، صديق سارتر وخلفه في إدارة مجلة الأزمنة الحديثة. لكن تعداد الصفات على إثر التوقيع لا يترك أثراً للشك. نفهم أن حاسة الشم لدى السيد لانزمان ليست ذات أهمية كافية لإخباره بحالة وزارة الثقافة الفلسطينية، لكننا نجد صعوبة في فهم عدم قراءته للصحيفة التي يطلق فيها لنفسه العنان. ثم صعوبة في فهم كيف أن رؤية سينمائي بارز سيكون لها مجال متقلص إلى هذا الحد. ننتظر من مدير الأزمنة الحديثة ذكاء إن هو لم يكن قابلاً لتقديم حل للصراع الإسرائيلي – الفلسطيني، فله على الأقل أن يكون قابلاً لتوضيح المواقف الخاصة بكل طرف، وبالتالي لتقديم فهم. إن دور الأزمنة الحديثة طيلة الحرب الجزائرية كان بمقدرته أن يقوده، مثلاً، إلى إخراجنا من الهستيريا المنتشرة بملاحظة أن الأعمال الموصوفة اليوم من طرف المستعمرين بالارهابية ليست بالبديهة سوى أعمال مقاومة.

لكن التعامل مع إسرائيل كمحتل يمثل، بالنسبة لكلود لانزمان، كلمة عار ما دام يهمل كلا من الطريقة التي كان الفلسطينيون سلبوا بها من أراضيهم (٦ في المئة فقط هي التي دفع ثمنها) وتاريخ استعمار أصبح يندد به، في إسرائيل ذاتها، من طرف المؤرخين الجدد ومن طرف سلسلة من أفلام ب ب س التي تبعث على الظن بأن فيلم «المحرقة» للسيد لانزمان كان نموذجاً لها.

والفظيع، في هذه الحالة، لا يكمن في هذا الجهل التكتيكي، الذي يتقاسمه جميع الإسرائيليين، وفي أننا، لربما، كنا سننتهي إلى أن نتقاسمه جميعاً لو لم يكن هنا هذا العدد الذي لا يحصى من اللاجئين المودوعين منذ نصف قرن في مخيمات يجب أن نتساءل منذ أمد بعيد بين فينة وأخرى على إثر المذابح، كما جرت به العادة، عن مآلهم وعن لماذا وكيف. الفظيع هو النبرة التحقيرية التي يستعملها السيد لانزمان لنزع الصفة عن الذين يمكن أن يؤدّوا به إلى وضع يقينياته موضع التساؤل. فلنبدأ أولاً بما يتعلق بصفة المتطوعين الدوليين الذين كانوا، وهم محاصرون مع عرفات في المقاطعة، يشكلون بأجسادهم درعاً واقية لحمايته. إنهم

متهمون بأن لهم على الأخص تمكناً تاماً من الإنترنت وبالتالي من الدعاية المغرضة المبالغ فيها. وعلى الرغم، من جهة أخرى، من الشهادات الحاشدة والصور المتلفزة، يؤكد لنا السيد لانزمان أن هذه البنايات – بنايات المقاطعة – قد ظل أغلبها سليماً، فـ «الحمد لله على أن أي متطوع دولي لم يفقد حياته».

هنا، يقتفي السيد لانزمان، بتملُّص مدهش، خطى الإله المحمود الذي ينطق باسترجاع نفسه (لكن لماذا نهنئ أنفسنا على أن أي حياة لم تفقد ما دام لم يكن ثمة خطر؟) مستنداً لاعتبارات غير متوقعة هي هذه: «في إسبانيا، حصل شيء آخر، فالرجال الحقيقيون للألوية الدولية، الألمانية، الفرنسية، الأميركية... إلخ ماتوا بالآلاف، بروح بطولية في معارك تيرنيل، ألباسيط، مدريد، برشلونة ومالقا. يمكننا أن نغفر للمتطوعين العيش في أزمنة تندر فيها الصبغة الملحمية التي تكرسهم للصور المشوهة، أزمنة بدون عظمة ولا يوتوبيا، وذلك لا يبرر الانتقال من الصور المشوهة إلى التعريض، إلى المبالغة، إلى الكذب، إلى الدعاية المغرضة، وإلى الشهادة الملفقة.»

سنقدر الانتقال إلى اللغة الذكورية باستدعاء «الرجال الحقيقيين» في «الألوية الدولية الحقيقية». فهل يمكن أن يفلت من قبضة لا وعي السيد لانزمان أن القضية الفسطينية تستحق نجدة الألوية الدولية؟ عديدون هم الذين يفكرون في ذلك، لكن كيف يمكن النفاذ إلى بلد يمنعه أصدقاؤه الإسرائيليون من الوجود؟

يبدو السيد لانزمان وكأنه يعتبر اختيار موقف سلمي صورة مشوهة، لا مراء، بالنسبة اليه، في ان الطلقات الموجهة للصحافيين ومنع سيارات الاسعاف من الحركة وارادة ترك الجرحى يموتون، وباختصار ان مئات الابتزازات التي تمت معاينتها من طرف الشهود المتباينين على نحو واسع هي مجرد افتراءات، كل هذا ليس سوى «مبالغات ودعاية مغرضة» الخ. ويضخم السيد لانزمان اندفاعته ضد «الشهادات الكاذبة الموقدة للحرائق»، وخاصة ثلاثاً من بينها، التي عرفت كيف تستغل «كامل التبجيل الذي توليه هذه الصحيفة للثقافة» لينشر اصحابها في صحيفة لوموند وعلى امتداد صفحتين كاملتين «ثلاث نصوص بالغة الطول، لكتاب فضلا عن كونهم اعضاء ما يتسمى البرلمان العالمي للكتاب، وهي وضعية ترمي الى ان تضع على تعليقاتهم ختم الحقيقي والمسلم به...».

يمكن القول ان كلمة «الكتاب»، في هذا العرض، مصابة بشيء من الاحتقار. «ثلاثة نصوص بالغة الطول لكتاب». هو ذا ما يترك شبهة تطفو على طبيعتها الحقيقية، لأن هذا الوصف يجعلها حتما تنحو نحو الادب اكثر مما تنحو نحو الصحة. ومن جهة اخرى، فإن غويتيسولو، وسوينكا وبريتنباخ، الاعضاء الثلاثة «لما يتسمى البرلمان العالمي للكتاب» القادمين الى فلسطين لتقدير الخسائر لم يمكثوا فيها الا من ٢٤ الى ٢٩ مارس (آذار)، وهو، بعبارة اخرى، وقت قصير ليكونوا شهودا جديين.

ومن غير حق، يقدم السيد لانزمان هذه الحجة: لا بد من وقت طويل ليكون الاستطلاع قويا لكنه كان اقل من قليل ليروا، وليعاينوا، بالضبط، الخسائر والتوترات والاحتقارات، أي أن لانزمان صادق النية، عندما يتوجه الى فلسطين، يمكنه، وهو يشاهد هذه الاحتقارات، ان يمده بسلطة ثقافية تفوق بكثير وعي «الشهادات الكاذبة الموقدة للحرائق». والنتيجة، بدلا من ان يبرهن على الشهادات، يحبط الشهادات. والحقيقة انه يتغوط فوقهم حتى يقوم بمحقهم ثقافيا، ويجد نفسه على هذا النحو متناغما مع سلوك الجيش الاسرائيلي في رام الله. لقد تم اعدام غويتيسولو في ثلاثة سطور «حكم وطرف منذ سنين عديدة، عليه أن يطعن في نفسه كشاهد»، وتم طرد سوينكا، النيجري الحائز على نوبل، بسبب ارتباكه وعدم كفاءته.

ومن اجل ان نكون عادلين، علينا الاعتراف بأن قراءة «نصوص» غويتيسولو وسوينكا مخيبة للأمل،

فالأول والثاني يطنبان في استعمال اللغة الادبية فيما المطلوب هو النظر الخام. لكن هذه ليست حالة بريتن بريتنباخ، الذي نحسه التقط اشد النقاط حساسية، بسبب ان ما رأى كانت كلماته مرتجة بيأس انه لم يلتق سوى القمع والعنف. ان بريتنباخ هو اذاً الانسان الذي يجب صرعه، وهو ما تفرغ له السيد لانزمان طويلا. وسنحكم بأية طريقة، من خلال هذه الفقرة:

«إن بريتنباخ، حسب ما هو معلوم، شاعر. ولربما كان شاعرا. وهو لم يعد اليوم سوى خطيب متصنع تأخذه المبالغة: فلا توجد لديه عاطفة حقيقية ولا شفقة اصيلة على الفلسطينيين، فهو المسكون بالفراغ المصاب بوسواسه، لا يستطيع الا ان يقيس فداحة متشائمة، لكنه، وهو العاجز عن الكف عنها او عن التراجع الى الوراء، يعارض بالتصعيد وبالمزايدة (ولنقل بالمناسبة، ان هذا يصف بدقة آلية القرار لدى ادولف هتلر، الذي كان يقيد نفسه بكلمته ويتحدى المستقبل على هذا النحو، بمعنى انه كان يعلن ان قراراته السيئة غير قابلة للتراجع لأن قلبه كان أجوفاً..).

ان العبارة الموضوعية في الاخير بين قوسين دالة: «هذيانات الاحتقار». دلالتها لا حيث يضعها السيد لانزمان، بل هي في قلبه الشخصي. واذا كان لبريتنباخ الحق في لكمات المقارنة المنحطة مع هتلر، فلأنه، من بين الثلاثة الذين شنع بهم السيد لانزمان، الصوت الذي يملك صلاحية اكثر من سواه. فريتنباخ يعلم، بالتجربة، كيف يتعرف، في وضعية التمييز العنصري التي يعامل بها الفلسطينيون، على وضعية كانت وضعيته هو في افريقيا الجنوبية، بلده. فبتصديه للتمييز العنصري بزواجه لا بالكلمات المعارضة فقط، عرف التهديدات بالقتل وسنوات طويلة من الاعتقال. وبخلاف السيد لانزمان، يعرف بريتنباخ عم يتكلم ويعبر عنه بلغة اخوية تجاه الفلسطينيين، لكن دون بغض الاسرائيليين، لأنه ليس قاسيا الا مع قادتهم.

الشيء الوحيد المؤلم (بالنسبة لي) هو ان اعلم ان هؤلاء الكتاب الثلاثة قبلوا مصافحة شمعون بيريز، السياسي الانتهازي الأشد خيانة في زمننا. لكن هذه الالتفاتة كانت بالتأكيد جزءا من السياحة الانسانية التي يؤاخذهم السيد لانزمان عليها قبل ان يتفوه بغطرسته العادية بهذا السؤال الساحق والأخير:

«لماذا، مثلا، لم يقل مخبروكم، يا سيد بريتنباخ، ان اشجار الزيتون المجتثة هي التي كانت توجد على جانب الطريق؟ فالقناصة يتربصون خلف أوراق الشجر ثم يفرون، بعد تنفيذ عملهم».

هل رأى السيد لانزمان في وقت ما شجرة الزيتون؟ ألا يعلم أنها لا تغرس مثل الدلب وأن مداها لا يمكن أن يقدم إلا مخبأ عابرا. إن الديمقراطيين الاسرائيليين الأقوياء نزعوا من أشجار الزيتون حقولا بكاملها لا صفوفا، وذلك بهدف العقاب والاغتصاب والاحتقار. انهم اختصاصيون في العقاب الجماعي. اما فيما يخص القناصة المتربصين، فإن على السيد لانزمان، الذي وضع فيلما عن الجيش الاسرائيلي، ان يعلم انهم كانوا ينجون بصعوبة من آلات الالتقاط الفائقة التطور. يكفي التفكير في الاغتيالات الموجهة لقادة فلسطينيين بواسطة صواريخ ذكية، والتفكير ايضا في أن الجيش الاسرائيلي يؤكد انه نجح، بوسائله، في ادارة حرب نظيفة في الأزقة الوسخة لنابلس وجنين.

برنار نويل
ترجمة: محمد بنيّس